ملامح تداوليّة نصّيّة في سورة الحجر من تفسير "التّحرير والتّنوير" للشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور

textuel pragmatic featuresin surat al-hidjr from tafseer al-tahreer wal-tanweer of sheikh muhammad al-taher bin ashour

وفاء بن يوسف[*1]، حدة روابحية[2]

[1]جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)، benyoucef.wafa@univ-guelma.dz

[2]جامعة 8 ماي 1945 قالمة (الجزائر)،rouabhiahadda@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/09/02 تاريخ القبول: 2021/09/30 تاريخ النشر: 2021/12/26

ملخص:

تميّز محمّد الطّاهر بن عاشور برؤيته الشّموليّة لآي القرآن الكريم وعدّه نصّا واحدا بل فعلا كلاميّا شاملا يقوم على سلسلة الأفعال الجزئيّة، فقدّم السّورة على شكل موضوع عام تندرج تحته موضوعات صغرى، وهو ما جاء به فان دايك من مفهوم الفعل الكلامي النّصّي.

كما استعان في تعيين المقاصد المستجدّة في النّصّ القرآني بعناصر السّياق والأفعال الكلاميّة والدلالات الضمنيّة والصّريحة، وهو ما يحيلنا على أهميّة التّحليل التّداولي النّصّي في مقاربة النّصّ القرآني ووعي صاحب التّحرير والتّنوير بآليّات هذا المنهج.

كلمات مفتاحية: *التّداوليّة النّصّية، التّحرير والتّنوير، الفعل الكلامي النّصّي، فان دايك.*

Abstract:

Muhammad al-Taher bin Ashour distinguished himself with his comprehensive vision of the holy Qur'an. And he considered it a single text. Even further. A comprehensive speech act based upon a series of partial acts. He presented the surah in the form of a general topic under which minor topics fall. Which is what van dijk presented in the concept of the textual speech acts

Furthermore. He relied on the elements of context. Speech acts. And theimplicit and explicit connotations in determining the emerging intention in the qur'anic text. Which highlights the importance of textual pragmatic analysis in approaching the qur'anic text and the awareness of the author of tafseer al-tahreer wal-tanweer of the mechanisms of this approach.

***Keywords**: the textuel pragmatic approach; al-tahreer wal-tanweer; the textual speech act; van dijk.*

[*] المؤلف المرسل: وفاء بن يوسف، الإيميل : **benyoucef.wafa@univ-guelma.dz**

–مقدمة:

القرآن الكريم خطاب ربّانيّ منزّه عن أن يشبه شعرا أو نثرا، لا يخلق من كثرة الردّ ولا تنقضي عجائبه، جعل الله منه المُحْكم ليكون أصلا للرّجوع إليه، وجعل منه المتشابه ليحتاج إلى الاستنباط والاستخراج، وذلك دليل خصوبة النّصّ القرآنيّ وتعدّد معانيه بتعدّد السّياقات والاستعمالات، فالنّصّ القرآنيّ ليس مخصوصا بزمان ولا مكان، إذ كلّما توافرت أدوات جديدة تسمح باستنطاقه، وتجلية المعاني والدّلالات الكامنة التي جعلها الله فتحا لعباده، وجب الأخذ بها والاستفادة منها، ولا يعني ذلك استنساخ هذه النّظريّات والمفاهيم الغربيّة على النّصّ القرآني، بل تحقيق تفاعل مميّز منتج يسمح للقارئ باكتشاف المقاصد الكامنة.

ولعلّ في دراسات مفسّري القرآن الكريم ما يدلّ على وعيهم بتعدّد قراءات النّصّ القرآنيّ، فانطلقوا من الظّواهر اللّغويّة التي تتحكّم في ترجيح الدّلالات واستنباط الأحكام، وصولا إلى المنحى التّداولي التّأويلي لتعيين المقاصد المستجدّة،وذلك بالاستعانة بالأفعال الكلاميّة النّصّيّة بمفهوم هو أقرب إلى ذلك الذي استحدثه فان دايك الذي نادىفي كتابه الذي أسس للسانيات النص "النص والسياق" بالانتقال من دراسة الجملة إلى النص وعدّه سلسلة من الأفعال الكلامية، بل وعدم الاقتصار على البنية الداخلية للنصوص.

كل ذلك ينبئ عن وعيهم بأن المدونة القرآنية لا تحتاج إلى المقاربات النصية فقط نحو النظر في فعل الكلام النصي أوالسّياق الدّاخلي مثل سياق التقديم والتأخير، والمناسبة بل تحتاج ما هومتوافر من علوم ومعارف في السّياق الخارجيمثل معرفة أسباب النّزول، ومعرفة المكّي والمدني.

ويعدّ تفسير محمّد الطّاهر بن عاشور الذي أطلق عليه "تحرير المعنى السّديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد" واختصره إلى "التّحرير والتّنوير من التّفسير"[1] من أبرز التّفاسير التي درست القرآن الكريم نصّا موحّدا مترابطا يكمّل بعضه بعضا، كما أولت عناية بالغة للجانب اللّساني التّداولي، لذا كانت قراءته تفاعليّة لا تعطي الأولويّة للنّصّ فحسب، ولا لقارئه فحسب، ولا للسّياق فحسب، ولكن لكلّ هذه العناصر في اتّصالها وتمازجها. فكيف كانت مقاربة الشيخ التّداولية للنّصّ القرآني؟ وكيف بدت ملامح هذه المقاربة في تفسيره لسورة الحجر؟

1. فعل الكلام النّصّي:

لا شك أنّ عمليّة فهم النّص وتأويله تتوقّف أساسا على إمكانيّة الإجابة عن سؤال تداولي من قبيل: لماذا أُنتج هذا النّصّ؟ أو ما هي الغاية التي يصبو إلى تحقيقها إنتاج هذا النّصّ؟ أو بالأحرى ما المنظور الحجاجي الذي تتقصّده عمليّة الإنتاج؟[2]، أو بعبارة أخرى ما الموضوع الرّئيس الذي تدور حوله جميع الأفعال الكلاميّة في النّص؟

هذا الموضوع الرّئيس هو فعل الكلام النّصّي، وهو ما يطلق عليه "فان دايك" (van dijk) "موضوع الخطاب"، ويرادف عند محمّد خطّابي مصطلح "البنية الكليّة"، وعلى اعتبار أنّ النّصّ ليس متوالية من الجمل، حسب "فان دايك"، بل متوالية من الأفعال الكلاميّة المتعلّقة بفعل كلامي كلّي يقوم على إنجازيّة معيّنة، فتحليل النّصّ بهذا المفهوم يستدعي تناول النّصّ بوصفه فعلا كلاميّا أكبر انطلاقا من السّياق التّداولي الذي أنتج فيه.

"لهذا كان رهان الوصول إلى الفعل الخطابي الأكبر macro – acte de discours الصّريح أو الضّمني، بمثابة طريقة معيّنة في اختصار نصّ ما، ومن ثمّ تفسيره في معناه الكلّي، مثلما هي الحال بالنّسبة للنّصوص التي تتّخذ من الفعل الخطابي الأكبر عنوانا يختزل البنية الدّلالية الكليّة لهذه النّصوص"[3]، فهل أدرك محمد الطاهر بن عاشور هذا المفهوم؟ وهل اعتمد عليه في تفسيره؟

1.1فعل الكلام النّصّي عند محمّد الطّاهر بن عاشور:

أدرك أغلب المفسّرين مفهوم الفعل الكلامي النّصّي، أو ما يطلق عليه موضوع الخطاب، إذ تكشف تحليلاتهم وتفسيراتهم عن وجود هذا المفهوم في أذهانهم وهم يمارسون التّفسير. وذلك حين عدّوا القرآن كالكلمة الواحدة، له موضوع رئيس هو التّوحيد والعبادة، وموضوعات فرعيّة تصبّ كلّها وتخدم هذا الموضوع الرّئيس، وقد تميّز محمّد الطّاهر بن عاشور برؤيته الشّمولية الكليّة لآيات القرآن الكريم، بعدّه نصّا واحدا، بل فعلا كلاميّا شاملا يقوم على سلسلة الأفعال الجزئيّة، وتجلّى ذلك في عنايته البالغة بباب التّعالقات والمناسبات القائمة بين أجزاء النّصّ الواحد، كما تميّز عن غيره بتقديم السّورة على شكل موضوع عام تندرج تحته موضوعات صغرى، وذلك انطلاقا من مفهوم الفعل الكلاميّ النّصّيّ كما جاء به "فان دايك"، "فهو قبل

الشّروع في التّفسير يقدّم السّورة على شكل موضوعين عامّين جدّا تتمحور حولهما، لكنّه لا يقف عند هذا الحدّ، بل يشير كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، إلى الموضوعات الصّغرى التي تندرج ضمن موضوع عام".[4]

كما أن استخدام مبدأ الإجمال والتّفصيل مثلا عند الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور يوحي بأنّ السّور الشّارحة تحمل نفس مواضيع السّور السّابقة، وأدرجه أيضا عند الحديث عن وجه اعتلاق فواتح السّور بخواتم السّور التي قبلها، حيث نتأكّد من أنّها تحمل المعاني نفسها وتصبّ في البنية الدّلالية ذاتها، كما أنّ حديثه عن تناسب آي القرآن وارتباطها ببعضها البعض يدلّ على أنّ للسّورة معنى كليّ، يتشكّل جرّاء الارتباط والتّماسك الموجود بين الآيات.[5]

2.1 فعل الكلام النّصّي في سورة "الحجر"

بدت النّظرة الكليّة الشّموليّة التي انماز بها الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور واضحة في تفسيره للسّورة المدروسة، وذلك عند انطلاقه من "البحث عن الفكرة الرّئيسيّة أو الموضوع العام اللذان يعدّان من أهمّ عناصر التّحليل النّصّي، الشّيء الذي تفتقد إليه معظم التّفاسير القديمة، لأنّها تكتفي بالتّفسير الحرفي أو المعجمي، على مستوى الآية الواحدة"[6]، إلا أنّ الشيخ أبان في تفسيره عن وعي كبير بمفهوم فعل الكلام النّصّي، أو موضوع الخطاب، انطلاقا من إلمامه بالموضوع العام للسّورة.

ويتمثّل الموضوع الرّئيس للسّورة الكريمة في الشّأن العقدي، شأنها شأن السّور المكّية، وكيف كذّب المشركون الرّسل، وتمادوا في كفرهم فاستحقّوا العقاب الذي وعدهم الله به. وهذه السّورة جاءت في الفترة الحرجة التي عاشها الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، مهدّدة للمشركين المكذّبين، وتتوعّدهم، وتعرض عليهم مصارع المكذّبين الغابرين ومصائرهم، وتكشف للرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن علّة تكذيبهم وعنادهم، وهي لا تتعلّق به ولا بالحقّ الذي معه، لكنّها ترجع إلى العناد الذي لا تُجدي معه الآيات البيّنات، ومن يسلّي الرّسول صلّى الله عليه وسلّم ويواسيه، ويوجه إلى الإصرار على الحقّ الذي معه والصّدع به بقوّة في مواجهة الشّرك وأهله، والصّبر بعد ذلك على بطء الاستجابة ووحشة العزلة وطول الطّريق.[7]

ويشير محمّد الطّاهر بن عاشور إلى ذلك حين يذكر مقاصد السّورة، فيبدأ بالموضوع العام الذي تدور حوله السّورة، ثم يشير إلى الموضوعات التي جاءت في سياقها، نحو إقامة الحجّة على

الكافرين وإنذارهم، وكذا قصص الرّسل السّابقين مع أقوامهم تسلية للرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

2.السّياق الدّاخلي

يعدّ النصّ القرآني نصّا لغويّا من جنس لسان العرب، مؤلّفا من جمل مترابطة تشكّل عناصر ذات دلالات خاصّة بها، وتتضافر هذه العناصر لتؤلّف كلاما يفيد قصدا دلاليّا معيّنا، فلا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها أو بالتي بعدها داخل إطار السّياق، فالسّياق هو الصّورة الكليّة التي تنتظم الصّور الجزئيّة[8]، ونحاول فيما يأتي الإحاطة بالسّياقات اللّغوية التي أشار إليها محمد الطاهر بن عاشور في معرض تفسيره لسورة الحجر.

1.2سياق التّقديم والتّأخير

لهذا الباب البلاغي أهميّة بالغة، إذ لا يتمّ تقديم كلام على نيّة التّأخير أو تأخيره على نيّة التقديم عبثا، بل لبواعث موجبة تخرج الكلام في صورة أبلغ وأفصح[9]، وقد اعتمد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور سياق التّقديم والتّأخير بعده آلية تداولية للتحليل، مشيرا إلى أهميته البالغة في الوصول إلى الدّلالات، ومن ذلك:

أولا . قوله في تفسير قوله تعالى:﴿**ألر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وقُرْآنٍ مُبِين**﴾(الحجر/1)، "فأمّا تقديم الكتاب على القرآن في الذّكر فلأنّ سياق الكلام توبيخ الكافرين وتهديدهم بأنّه سيجيء وقت يتمنّون فيه أن لو كانوا مؤمنين، فلمّا كان الكلام موجّها إلى المنكرين ناسب أن يستحضر المنزّل على محمد صلّى الله عليه وسلّم بعنوانه الأعمّ وهو كونه كتابا، لأنّهم حين جادلوا ما جالسوا إلا في كتاب، أمّا عنوان (القرآن) فهو مناسب لكون الكتاب مقروءا مدروسا وإنّما يقرأه ويدرسه المؤمنون به"[10].

ربط الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور تقديم لفظ (الكتاب) على القرآن بسياق الكلام ومقصده، ووضح سبب ذلك ومدى دقّة التّركيب وبلاغته، وتأثيره في المعنى.

ثانيا . تفسيره لقوله تعالى:﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون**﴾(الحجر/9)، يقول: "ثم زاد ذلك ارتقاء ونكاية لهم بأنّ منزّل الذّكر هو حافظه من كيد الأعداء، فجملة (وإنّا له لحافظون)

معترضة، والواو اعتراضية، والضّمير المجرور باللام عائد إلى (الذّكر) واللام لتقوية عمل العامل لضعفه بالتّأخير عن معموله."[11]

يرى الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور أنّ لتقديم الجار والمجرور (له) أثرا واضحا في المعنى، بل يعمل على تقوية عمل العامل، بسبب ضعفه لو جاء متأخّرا، فالتّركيب (لحافظون للذّكر) أضعف من (للذّكر لحافظون)، ممّا يبرز دقّة التّركيب وتأديته للمعنى المراد.

2.2 المناسبة بين الآيات

معرفة المناسبات بين الآيات مظهر من مظاهر مراعاة السّياق في الفهم والتّفسير، وفائدته جعل أجزاء الكلام بعضها مرتبطا ببعض، حتى يصير التّأليف كحال البناء المحكم المتلائم الأجزاء[12]، فالتّناسب هو ذلك التّرابط الواقع بين الآيات والسّور المفضي إلى القول بأنّ القرآن كلّه نصّ واحد، كلّ آية منه تحيل على الأخرى، وكلّ سورة تحيل على ما يليها، وذلك من أوّله إلى آخره، إذن فالبحث في العلاقات المنطقيّة المختلفة بين السّور والآيات هو أساس علم المناسبة.

ومن المعلوم أنّ عمل علماء التّفسير قائم على رؤية شموليّة للنّصّ القرآني، إذ ينظرون إلى القرآن الكريم كالكلمة الواحدة، فأكّدوا "المناسبة بين حروف الكلمة الواحدة، وكلمات الجملة الواحدة وجمل النّصّ الواحد ونصوص القرآن كلّه."[13]

وقد أولى الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور في تفسيره أهميّة كبرى للتّناسب، فأشار إلى تناسب السّور المتواليّة، والتّناسب بين مطلع السّورة وختامها، والتّناسب بين مطلع السّورة وموضوعها، كما اعتنى بالتّناسب الموضوعي، ولم يغفل التّناسب بين الآيات وحتى في الآية الواحدة، وممّا أورده في تفسيره لسورة الحجر في هذا السّياق:

أولا . التناسب الموضوعي، حيث يستهلّ الشيخ محمّد الطاهر بن عاشور تفسيره لسورة الحجر بمقاصد السّورة، مشيرا فيه إلى التّناسب الموضوعي، حيث يبدأ بالموضوع العام الذي تدور حوله السّورة، ثمّ يشير إلى الموضوعات التي جاءت في سياق السّورة، كإقامة الحجّة على الكافرين وإنذارهم، وكذا قصص الرّسل السّابقين مع أقوامهم تسلية للرّسول الكريم صلّى الله عليه وآله وسلّم.

يوضّح كلّ ذلك بقوله: "افتتحت بالحروف المقطّعة التي فيها تعريض بالتّحدي بإعجاز القرآن. وعلى التّنويه بفضل القرآن وهديه، وإنذار المشركين بندم يندمونه على عدم إسلامهم وتوبيخهم بأنّهم شغلهم عن الهدى انغماسهم في شهواتهم، وإنذارهم بالهلاك عند حلول أوان الوعيد الذي عيّنه الله في علمه.

ثمّ تسلية الرّسول . صلّى الله عليه وآله وسلّم . على عدم إيمان من لم يؤمنوا، وما يقولونه في شأنه وما يتوركون بطلبه منه، وأنّ تلك عادة المكذّبين مع رسلهم. وأنّهم لا تجدي فيهم الآيات والنّذر لو أسعفوا بمجيء آيات حسب اقتراحهم به وأنّ الله حافظ كتابه من كيدهم، ثمّ إقامة الحجّة عليهم بعظيم صنع الله وما فيه من نعم عليهم. وذكر البعث ودلائل إمكانه.

وانتقل إلى خلق نوع الإنسان وما شرّف الله به هذا النّوع. وقصّة كفر الشّيطان. ثمّ ذكر قصّة إبراهيم ولوط عليهما السّلام وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر. وختمت بتثبيت الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم وانتظار ساعة النّصر، وأن يصفح عن الذين يؤذونه، ويكل أمرهم إلى الله، ويشتغل بالمؤمنين، وأن الله كافيه أعداءه. مع ما تخلّل ذلك من الاعتراض والإدماج من ذكر خلق الجنّ، واستراقهم السّمع، ووصف أحوال المتّقين، والتّرغيب في المغفرة، والتّرهيب من العذاب."[14]

ثانيا . يذكر الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور المناسبة بين الآيات في سورة الحجر، فلا تخلو آية من الإشارة إلى سبب ورودها في هذا الموضع، وعلاقتها بغيرها من الآيات. ومن ذلك:

تفسيره لقوله تعالى:**﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ وقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾**(الحجر/1)، يقول: "ووقعت هذه الآية في مفتتح تهديد المكذّبين بالقرآن لقصد الإعذار إليهم باستدعائهم للنّظر في دلائل صدق الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وحقّية دينه"[15]، فجعل بذلك لوقوع الآية في هذا الموضع غرضا ومقصدا ظاهرا وهو استدعاء المكذّبين للنّظر في دلائل صدق النّبي صلّى الله عليه وسلّم، قبل الشّروع في تهديدهم وتوبيخهم.

وقوله في تفسير قوله تعالى:**﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾**(الحجر/6)، "عطف على جملة (ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا) والمناسبة أنّ الآية المعطوف عليها تضمّنت انهماكهم في الملذّات والآمال، وهذه تضمّنت توغّلهم في الكفر وتكذيبهم الرّسالة

المحمّدية"[16]. ونلحظ في هذا المقام كيف ربط الشيخ محمد الطاهر بن عاشور بين آيتين غير متجاورتين، وعطف إحداهما على الأخرى، ثم عزا العطف إلى المناسبة بين الآيتين، فتكمّل إحداهما الأخرى وتعزّز معناها رغم عدم تجاورهما في الموضع.

كما يقول في تفسير آيات الدّلائل (من 17 إلى 27): "لمّا جرى الكلام السّابق في شأن تكذيب المشركين برسالة محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وما تركوا به في ذلك وكان الأصل الأصيل الذي بنوا عليه صرح التّكذيب أصلين، هما إبطاله إلهيّة أصنامهم، وإثباته البعث، انبرى القرآن يبيّن لهم دلائل تفرد الله تعالى بالإلهيّة فذكر الدّلائل الواضحة من خلق السّماوات والأرض، ثمّ أعقبها بدلائل إمكان البعث من خلق الحياة والموت وانقراض أمم وخلفها بأخرى، وصادف ذلك مناسبة ذكر فتح أبواب السّماء في تصوير علوائهم بعنادهم، فكان الانتقال إليه تخلّصا بديعا"[17].

يصرّح الشيخ محمّد الطّاهر بن عاشور بمناسبة ورود الآيات الكريمة، وتحديدا استهلالها بالآية (ولقد جعلنا في السّماء بروجا وزيّناها للناظرين)، وختمها بالآية (وإنّا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون)، فكلّها دلائل على تفرّد الله تعالى بالألوهية، ردّا على ما ورد في الآيات السّابقة لها من تكذيب المشركين.

3.2 كلّ المعاني مرادة

أفرد محمّد الطّاهر بن عاشور المقدّمة التّاسعة الموسومة بـ (في أنّ المعاني التي تتحمّلها جمل القرآن تعتبر مرادة بها) لتبيان أثر السّياق في تغيّر معنى التّركيب الواحد، وذلك لاختلاف أساليب الاستعمال العربي، فيقول: "وإنّك لتمرّ بالآية الواحدة فتتأمّلها وتتدبّرها فتنهال عليك معان كثيرة يسمح بها التّركيب على اختلاف الاعتبارات في أساليب الاستعمال العربي. وقد تتكاثر عليك فلا تك من كثرتها في حصر، ولا تجعل الحمل على بعضها منافيا للحمل على البعض الآخر إن كان التّركيب سمحا بذلك."[18]

يقول أيضا: "فمختلف المحامل التي تسمح بها كلمات القرآن وتراكيبه، إذا لم تفض إلى خلاف المقصود من السّياق، يجب حمل الكلام على جميعها، كالوصل والوقف في قوله تعالى:﴿**ذَٰلِكَ الكِتَابُ لارَيْبَ ص فِيهِ ص هُدًى للمُتَّقِين**﴾(البقرة/2)، إذا وقف على (لا ريب) أو على (فيه)."[19]

هذا ما جعل محمّد الطّاهر بن عاشور يورد أحيانا أكثر من معنى للتّركيب الواحد، ومنه في تفسيره لسورة الحجر، في الآية: (**وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي والقُرْآنَ العَظِيم**) (الحجر/87)، يقول: "جعل (القرآن) معطوفا على (سبعا من المثاني) يشعر بأنّ السّبع المثاني من القرآن، وقد وصف القرآن في سورة الزّمر بالمثاني، فتعيّن أنّ السّبع هي أشياء تجري تسميتها على التّأنيث لأنّها أجري عليها اسم عدد مؤنث والمراد آيات أو سور من القرآن"[20]، فيذكر هنا المعنى المراد الأوّل، وقد أثبت صحّته اعتمادا على قرينة لغويّة هي تأنيث اسم العدد.

ثمّ يضيف: "و(المثاني) يجز أن يكون جمع مُثنّى، اسم مفعول مشتقّا من ثنى إذا كرّر تكريره، قيل (المثاني) جمع مثناة فهو مشتق من اسم الاثنين، والأصحّ أنّ السّبع المثاني هي سورة فاتحة الكتاب لأنّها يثنّى بها، أي تعاد في كلّ ركعة من الصّلاة"[21]، يورد هنا المعنى المراد الثّاني، غير أنّه يرجّحه على غيره، ويثبت صحته اعتمادا على قرينة لغوية أيضا هي اشتقاقلفظ (المثاني) من (ثنى) وهو التكرير.

ويورد قول ابن عباس في هذا ذلك: "أنّ السّبع المثاني هي السّور السّبع الطّوال، أولاها البقرة وآخرها براءة، وإن كان المراد بالسّبع سورا كما هو مروي من قول ابن عباس وكثير من الصّحابة والسّلف، واختلفوا في تعيينها بما لا ينثلج له صدر، فيكون إبهامها مقصودا لصرف النّاس للعناية بجميع ما نزل من سور القرآن كما أبهمت ليلة القدر"[22]، يورد هنا المعنى المراد الثّالث، ويعزوه إلى ابن عباس وكثير من الصحابة، للتّدليل على صحته، على الرغم من عدم ترجيحه له، بل ويعلّل اختيارهم.

3 . السياق الخارجي:

يهتم السّياق الخارجي بالمتكلّم، وبزمان، ومكان إنتاج النّصّ، كما يهتمّ بالمتلقّي ونوع الرّسالة، ويراها عناصر أساسيّة تدخل ضمن تشكيل السّياق وتساهم في تأويل النّصّ وفهمه، في حين ينفرد السّياق القرآني بخصوصيّته، ويفرض سياقه الخاصّ، إذ يتميّز بأنّ المرسل فيه هو الله تعالى، والمتلقّي الأول للرّسالة هو جبريل عليه السّلام، والمتلقّي الثّاني هو محمّد رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، والمتلقّي الثّالث هم النّاس في عهده صلّى الله عليه وسلّم ومن جاء بعدهم من البشر[23].

فالقرآن الكريم رسالة إلى البشريّة جمعاء منذ بعثة النّبي صلّى الله عليه وسلّم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالبثّ من هذا الاعتبار متّصل على وجه الأبد، مما يجعل هذه العلاقة ترقى إلى ما فوق الزمنيّة التّاريخيّة[24]، إلا أنّ فهم المعنى المقصود يبقى مرتبطا بالسّياقات التّاريخيّة والفضائيّة المكانية، ثاويا في ظروف التّنزيل التي اكتست أهميّة تفسيريّة لا تأريخيّة. وفيما يأتي نحاول الإحاطة بالسّياقات الخارجية التي أشار إليها الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور في معرض تفسيره لسورة الحجر.

3 .1. السّياق التّاريخي (أسباب النّزول):

تكمن أهمّية أسباب النّزول في أنّ علم المعاني والبيان مداره على مقتضيات الأحوال، وأنّ الجهل بأسباب النّزول موقع في الإشكالات والشّبه، ويعدّ العلم بسبب النّزول مانعا من تعميم الحكم بمفهوم الآية، إلا بما هو مناسب بين وقائع سبب النّزول وما بين المسألة الفقهيّة، في الشّروط المتكافئة.[25]

وقد "أولع كثير من المفسّرين بتطلّب أسباب نزول آي القرآن، وهي حوادث يروى أنّ آيات من القرآن نزلت لأجلها لبيان حكمها، أو لحكايتها، أو إنكارها أو نحو ذلك... فكان أمر أسباب نزول القرآن دائرا بين القصد والإسراف، وكان في غضّ النّظر عنه وإرسال حبله على غاربه خطر عظيم في فهم القرآن"[26]، ويرجع اهتمام المفسّرين بأسباب النّزول إلى أنّ "نزول القرآن كان على قسمين: قسم نزل ابتداء، وقسم نزل عقب واقعة أو سؤال"[27]، فالأوّل هو ما نزل من غير أن يكون مستندا إلى أية وقائع وأسباب خارجية، وآياته قليلة جدا. أمّا القسم الثّاني فهو الذي يرتبط فيه كلّ آية أو مجموعة من الآيات بأسباب للنّزول خاصّة ومحدّدة.[28]

وقد أولى الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور أهميّة كبرى لأسباب النّزول في تفسيره لسورة الحجر، بدءا من التّعريف بالسّورة، حيث يذكر سبب نزول عدد من الآيات، الذي ورد في بعض كتب التّفسير، ثمّ يفنّدها ويشير إلى ضعفها، ويفصّل ذلك في موضعه.

ذكر الآية: **(كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِين)**(الحجر/90-91)، ويقول: "فسّروا (المقتسمين بأهل الكتاب) وهو صحيح، وتفسير (جعلوا القرآن عضين) أنّهم قالوا

ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب، ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصححه كما نبيّنه عند الكلام على تلك الآية."[29]

وبالعودة إلى موضع تفسيره للآية نجده يذكر ذلك "المقتسمون يجوز أن يراد بهم جمع من المشركين فيكون المراد بالقرآن مسمّى هذا الاسم العلم وهو كتاب الإسلام. ويجوز أن يراد بهم طوائف أهل الكتاب قسّموا كتابهم أقساما، منها ما أظهروه ومنها ما أنسوه، فيكون القرآن مصدرا أطلق بمعناه اللّغوي، أي المقروء من كتبهم. أو قسّموا كتاب الإسلام منه ما صدّقوا به وهو ما وافق دينهم، ومنه ما كذّبوا به وهو ما خالف ما هم عليه"[30]، فيشير محمّد الطّاهر بن عاشور في هذا الموضع إلى احتمال لفظ (القرآن) لعدة معان، وجميعها لها سياقها الذي يعضدها، غير أنه يرجح المعنى الذي أشار إليه بقوله: "واعلم أنّ معنى المقتسمين على الوجه المختار المقتسمون القرآن، وهذا هو معنى (جعلوا القرآن عضين) فكان ثاني الوصفين بيانا لأولهما وإنما اختلفت العبارتان للتّفنن."[31]

نلحظ أنّ محمد الطاهر بن عاشور قد أورد أسباب النّزول الواردة لهذه الآية، ثمّ قام بالتّرجيح بينها، وقد اختلف عنده معنى لفظ (القرآن) باختلاف السّياق الذي اعتمده.

ذكر أيضا الآية:(**وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِين**)(الحجر/24) يقول: "أخرج التّرمذي في سبب نزولها أنّها في صفوف الصّلاة. قال: كانت امرأة تصلّي خلف رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حسناء فكان بعض القوم يتقدّم حتّى يكون في الصّفّ الأوّل لئلا يراها، ويستأخر بعضهم حتّى يكون في الصّفّ المؤخّر (أي من صفوف الرّجال) فإذا ركع نظر من تحت إبطيه فأنزل الله تعالى (ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين). قال ابن كثير في تفسيره: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة."[32]

وبالعودة إلى موضع تفسيره للآية نجده يذكر ذلك، ويعلّق عليه بقوله: "وهو خبر واه لا يلاقي انتظام الآيات ولا يكون إلا من التّفاسير الضّعيفة"[33]، فهو في تفسير هذه الآية يردّ سبب النّزول الذي أورده التّرمذي، ويعلّل ذلك بالسّياق الدّاخلي للآيات، فهو في هذا الموضع يرجّح السّياق الدّاخلي والتّناسب بين الآيات على السّياق الخارجي والرّواية الواردة في سبب نزولها، ويختار تفسيرا للآية يعتمد على ذلك، فيقول: "لما ذكر الإحياء والإماتة وكان الإحياء يذكر بالأحياء،

وكانت الإماتة تذكر بالأموات الماضين، تخلّص من الاستدلال بالإحياء والإماتة على عظم القدرة إلى الاستدلال بلازم ذلك على عظم علم الله وهو علمه بالأمم البائدة وعلم الأمم الحاضرة. فأريد بالمستقدمين الذين تقدّموا الأحياء إلى الموت أو إلى الآخرة، فالتّقدم فيه بمعنى المضيّ، وبالمستأخرين الذين تأخّروا وهم بعد انقراض غيرهم إلى أجل يأتي."[34]

كما كان محمّد الطّاهر بن عاشور يحيل على روايات في معرض تفسيره للآيات، من ذلك تفسيره للآية: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**﴾(الحجر/47)، وذلك بقوله: "وأوّل من يدخل في هذا العموم أصحاب النّبي صلّى الله عليه وسلّم فيما شجر بينهم من الحوادث الدّافع إليها اختلاف الاجتهاد في إقامة مصالح المسلمين، والشّدة في إقامة الحقّ على حسب اجتهادهم. كما روي عن عليّ كرّم الله وجهه أنّه قال: إنّي لأرجو أن أكون أنا وطلحة ممّن قال الله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخوانا) فقال جاهل من شيعة عليّ اسمه الحارث بن الأعور الهمداني: كلا الله أعدل من أن يجمعك وطلحة في مكان واحد. فقال عليّ: فلمن هذه الآية لا أمّ لك بفيك التّراب."[35]

2.3. السّياق الفضائي (المكيّ والمدنيّ):

عني المفسّرون بضبط منازل الوحي ومواقعه الدّقيقة لما لها من صلة وثيقة بفهم مضامين النّصّ القرآني وتبيين دلالته، ولم تقتصر على كونها فضاءات جغرافيّة وأمكنة واقعيّة، "فالمكان هنا لا يمثّل مجرّد سياق فضائي خارجي اقترنت به أطوار النّزول، إنّه بالأحرى مقوّم حيويّ من مقوّمات البناء الدّلالي للنّصّ."[36]

ومن فائدة الاطّلاع على ما هو مكيّ وما هو مدنيّ، معرفة أحكام اختلاف الدّارين مكّة والمدينة، ومراعاة الظّروف والمناسبات وأحوال المكلّفين بها، وكيف كان حال المهاجرين وطبيعة أحكامهم، وكيف كان حال الأنصار وطبيعة أحكامهم.

وقد أولاها محمد الطاهر بن عاشور أهميّة كبيرة في تفسيره، فيشير إلى أنّ السّورة مكيّة أو مدنيّة، بل ويدلّل على ذلك أحيانا، ويورد حججا، ومن ذلك ما جاء في تفسيره لسورة الحجر، حيث يقول: "وهي مكّية كلّها وحكي الاتّفاق عليه وعن الحسن قوله تعالى (ولقد آتيناك

سبعا من المثاني والقرآن العظيم) بناء على أنّ سبعا من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنّها مدنيّة. وهذا لا يصحّ لأنّ الأصحّ أنّ الفاتحة مكّيّة"[37].

كما أنّه ربط تفسير الآية:﴿**كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ الذِينَ جَعَلُوا القُرْآنَ عِضِين**﴾ (الحجر/90-91) بكونها قد نزلت قبل هجرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم أو بعدها، يقول: "وتفسير (جعلوا القرآن عضين) أنّهم قالوا ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب، ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصحّحه. ولو سلم هذا التّفسير من جهتيه فقد يكون لأن اليهود سمعوا القرآن قبل هجرة النّبي صلّى الله عليه وسلّم بقليل فقالوا ذلك حينئذ، على أنّه قد روي أنّ قريشا لمّا أهمّهم أمر النّبي صلّى الله عليه وسلّم استشاروا في أمره يهود المدينة"[38]

يظهر من ذلك عناية بن عاشور البالغة بعلوم القرآن من أسباب للنّزول ومكّي ومدني، بعدّها سياقا خارجيّا ينطلق منه إلى تفسير الآيات، ويظهر مدى وعيه بأثرها في توجيه التّفسير، وقبوله أو ردّه.

- خاتمة:

نخلُص في ختام بحثنا إلى أنّ النّصّ القرآني لا يكشف عن كلّ معانيه للمتلقّي، بل يُضَمِّن الملفوظات معانٍ صريحة وأخرى مضمرة، هذه المعاني يتمّ تحديدها من خلال كتب التّفسير، والاستعانة بالسّياق القرآني، سواء منه ما تعلّق بالسّياق اللساني النّصّي في بعده التّداولي، أو السّياق الخارجي نحو أسباب النّزول ومواضعه.

وقد جاءت تحليلات المفسّرين وما كشفوا عنه من ملابسات وقرائن داخليّة وخارجيّة لتدلّ على عمق منهجهم في فهم القرآن الكريم، وقد تميّز الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور برؤيته الشّمولية للنّصّ القرآني، وأبان عن وعي بإجراءات المقاربة التّداولية النّصّية، وإن لم يحُز إطارا منهجيّا ونظريّا كذلك الذي قدّمته الدّراسات الغربيّة.

وخلص البحث إلى جملة من النّتائج نذكر منها:

- يرسّخ الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور لتفسير القرآن الكريم اعتمادا على القراءة التّفاعليّة بين النّصّ وقارئه وسياقاته المختلفة، الدّاخليّة منها نحو التّقديم والتّأخير، والمناسبة بين الآيات، والمعاني المرادة، وكذا الخارجيّة مثل أسباب النّزول ومواضعه.

- أدرك الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور مفهوم الفعل الكلامي النّصّي كما جاء به فان دايك، إذ أسفرت تحليلاته وتفسيراته عن وجود المفهوم في ذهنه، فقد تميّز عن غيره بتقديم السّورة على شكل موضوع عام تتمحور حوله موضوعات صغرى تندرج ضمن الموضوع العام.

- اهتمّ الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور بتقديم رؤية شموليّة كليّة في تناول آيات القرآن بعدّه نصّا واحدا، وجملة واحدة، بل فعلا كلاميّا شاملا يقوم على سلسلة من أفعال الكلام الجزئيّة، وهو أمر بالغ الأهميّة في الدّراسات التّداوليّة التي عنيت بتحليل النّصوص، وتجلّى ذلك في العناية الفائقة التي أولاها للبحث في باب المناسبات والتّعالقات القائمة بين أجزاء النّصّ الواحد.

- أولى الشّيخ محمّد الطّاهر بن عاشور أهميّة قصوى للبعد التّداولي في تفسير النّصّ القرآني، وذلك بالوقوف على العلاقات الدّاخلية في النّصوص القرآنيّة لإقامة التّفاعل بينها وبين سياقاتها الخارجيّة، انطلاقا من النّظرة النّصّيّة الشّاملة التي انماز بها عن غيره من مفسّري القرآن الكريم.

الهوامش والإحالات:

[1] . ينظر: محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، (د-ط)، 1997م، ص 9.

[2] _ J, M, Adam. Linguistique Textuelle des genres de discours aux textes. p 78

[3] . هواري بلقندوز، التداوليات النصية، مقاربة في فهم الخطاب، أطروحة دكتوراه لسانيات الخطاب، جامعة وهران، الجزائر، 2009م، ص 153.

[4] . محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1991م، ص 181.

[5] . ينظر: الطيب العزالي قواوي، الانسجام النصي وأدواته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع 8، 2012م، ص72.

[6]. فطومة الحمادي، التماسك النصي بين النظرية والتطبيق، رسالة ماجستير، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، 2004م، ص80.

[7]. ينظر: سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط: 16، 1990م، ج4، ص212.

[8]. ينظر: عبد الرحمن بودراع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، مركز الدراسات القرآنية الرابطةالمحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، ط1. 2013م. ص 181.

[9]ينظر: المرجع نفسه، ص199.

[10]. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 14،ص10.

[11]. المصدر نفسه، ص21.

[12]. عبد الرحمن بودراع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص 202.

[13]. ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م، ص 50.

[14]. محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، ج 14، ص 7.

[15]. المصدر نفسه، ص 8.

[16]. المصدر نفسه، ص 16.

[17]. المصدر نفسه، ص 27.

[18]. المصدر نفسه، ج1، ص 97.

[19]. المصدر نفسه، ص 97.

[20]. المصدر نفسه، ص 80.

[21]. المصدر نفسه، ص80.

[22]. المصدر نفسه، ص 81.

[23]. ينظر: نوال لخلف، الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أنموذجا، أطروحة دكتوراه في الأدب العربي، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، 2006م، ص 195.

[24]. ينظر: عبد المالك مرتاض، نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م، ص 7.

[25]. ينظر: سعد بولنوار، الآليات التداولية في تفسير أضواء البيان للشنقيطي، مجلة الأثر، جامعة عمار ثليجي الأغواط، ع 13، مارس 2012م، ص 81 وما بعدها.

[26]. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 46.

[27] . جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1974م، ج1، ص 82

[28] . ينظر: محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن دراسة في ضوء التأويليات المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013م، ص 194.

[29]. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج 14، ص 5.

[30]. المصدر نفسه، ص 85.

[31]. المصدر نفسه، ص 87.

[32]. المصدر نفسه، ص 6.

[33]. المصدر نفسه، ص 40.

[34]. المصدر نفسه، ص40.

[35]. المصدر نفسه، ص 56.

[36] . محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن دراسة في ضوء التأويليات المعاصرة، ص 204

[37]. محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج14، ص 5.

[38]. المصدر نفسه، ص 6.

-قائمة المصادر والمراجع:

أولا: الكتاب العربي القديم:

1 ــ جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 1، 1974م، (د–ط)، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.

2 ــ سيد قطب، في ظلال القرآن، ج41990م، ط 16، دار الشروق، بيروت، لبنان.

3 ــ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، 1997م، (د–ط)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.

ثانيا: الكتاب العربي الحديث أو المترجم:

1 ــ صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2000م.

2 ــ عبد الرحمن بودراع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، مركز الدراسات القرآنية الرابطةالمحمدية للعلماء، الرباط، المغرب، ط1. 2013م.

3 ــ عبد المالك مرتاض، نظام الخطاب القرآني تحليل سيميائي مركب لسورة الرحمن، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2001م.

4 ــ قدور عمران، البعد التداولي والحجاجي في الخطاب القرآني، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، ط1، 2012م.

5 ــ محمد الحيرش، النص وآليات الفهم في علوم القرآن دراسة في ضوء التأويليات المعاصرة، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2013م.

6 ــ محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب. المركز الثقافي العربي. الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1991م.

7 ــ نصيرة محمد غوماري، النظرية التداولية عند الأصوليين دراسة في تفسير الرازي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2014م.

8_ J, M, Adam. Linguistique Textuelle des genres de discours aux textes

ثالثا: المقالات:

1 ــ العزالي قواوي، الطيب، (2012م)، الانسجام النصي وأدواته، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر، ع 8، ص72.

2 ــ بولنوار، سعد، (مارس 2012م)، الآليات التداولية في تفسير أضواء البيان للشنقيطي، مجلة الأثر، جامعة عمار ثليجي الأغواط، ع 13، ص 81 وما بعدها.

رابعا: الأطروحات:

1ــ الحمادي، فطومة، (2004م)، التماسك النصي بين النظرية والتطبيق، *رسالة ماجستير*، جامعة محمد خيضر، بسكرة، الجزائر.

2بلقندوز، هواري، (2009م)، التداوليات النصية، مقاربة في فهم الخطاب، *أطروحة دكتوراه لسانيات الخطاب*، جامعة وهران، الجزائر.

3ــ لخلف، نوال، (2006م)، الانسجام في القرآن الكريم، سورة النور أنموذجا، *أطروحة دكتوراه فيالأدب العربي*، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، الجزائر.